الفصل الثانى

القتل أول جريمة فى الأرض

وينقسم إلى مباحث:

المبحث الأول : هبوط الإنسان إلى الأرض

المبحث الثانى : أول الجرائم فى الأرض

المبحث الثالث : ما يؤخذ من قتل قابيل لهابيل

المبحث الرابع : مفتاح الشرور وأسباب الاعتداء

المبحث الخامس : الإسلام يهذب الغضب ويأمر بالرفق، ويؤكد الحقوق البشرية مع المسلمين وغير المسلمين.

obeikandl.com

القتل أول جريمة فى الأرض

● **هبوط الإنسان إلى الأرض:**

بعد هبوط آدم إلى الأرض تبدأ الحياة البشرية بما فيها من خير وشر وإصلاح وإفساد. لتبدأ بذلك قصة ذلك الصراع بين الحق والباطل، وبين الإنسان والشيطان، والتى تمثل بدورها الخلافة البشرية لله فى الأرض، ولم يكن لبنى آدم أن يتفرقوا فى الأرض أو أن يذهبوا فيها كل مذهب لأن ذلك يشتت طاقتهم فى إعمار الأرض. بل كان عليهم أن يجتمعوا ويتناسلوا ليقيموا أول مجتمع بشرى فى ذلك الوجود، وفى هذا يقول ابن خلدون: الإجتماع البشرى ضرورى ويعبر عنه الحكماء بقولهم «الإنسان مدنى بطبعه» أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه: أن الله تعالى خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله. إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من هذا الغذاء، ولو فرضنا أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة حيث لا يأتى إلا بالزراعة والحصاد ثم الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال لا يتم إلا بمواعين وآلات لا تتم هى الأخرى إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى. هذا إلى جانب ما يحتاجه الزرع والحصد من صناعات يستحيل أن تفى بها أو ببعضها قدرة الواحد فلابد من إجتماع العدد الكبير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم. فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانه بأبناء جنسه» (١).

● **أول الجرائم فى الأرض:**

ولكن ذلك الاجتماع البشرى فى بداية الخلق أدى مع ما أدى إليه من ظهور فضائل التعاون على البر والتقوى إلى ظهور نوع من الانحرافات والتصادمات بين

---

(١) ابن خلدون – المقدمة.

طبعية لتشابك المصالح وتصادم الأهواء بينهم حيث يريد كل
ان يستأثر بأفضل النعم المتاحة فى وجودهم.

كان أول تلك المصادمات بين البشر هى تلك الجريمة النكراء التى أرتكبها يل فى حق الحياة والأحياء والتي أزهق فيها حياة أخيه هابيل والتي ذكرها الحق تبارك وتعالي بقوله: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾

[المائدة: ٢٧- ٣١]

فذكر ابن عباس وناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وأخت قابيل أحسن وأجمل فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه فأمره آدم أن يزوجه إياه فأبى إلا أن يستأثر بها لنفسه. فأمرهما أن يقربا قربانا. فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرعه. فتقبل الله من هابيل فغضب قابيل وقال لأقتلنك حتى لا تتزوج أختى. فقال له هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين. «قال ابن عباس وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يد، ولذلك قال له: لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين» فضربه بصخرة فقتله، ولهذا قال رسول الله ﷺ: لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل» (١).

(١) متفق عليه وأنظر تفاسير ابن كثير والقرطبى والطبرى.

ويعبر الحق عن قتل قابيل لأخيه بقوله « فطوعت له
فأصبح من الخاسرين » وهو تعبير يدل على بشاعة جرمه فى
وحق البشرية جميعاً. بل وحق الحياة والأحياء. كما يدل ع
نفسه من طمع وجشع وعدوان حتى استحق الخزي والخسران جزاء
جرم فأصبح من النادمين الحائرين ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ
لِيُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ
سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

أى لما قتله احتار فى أمره وعجز عن التصرف حتى بعث الله غرابين فتقاتلا حتى قتل أحدهما صاحبه فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه بالتراب، فلما رآه قابيل يصنع ذلك قال: ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى. ثم فعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه، وأصبح من النادمين.

● **ما يؤخذ من القصة:**

ولبشاعة هذه الجريمة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]، وقد صور القرآن قاتل النفس كأنه قتل الناس جميعاً لأن فى هذه الجريمة إهدار لحق الإنسان فى الحياة والوجود واعتداء على حق الخالق المحيى المميت، ولذلك فإن الذين يشتركون فى قتل نفس واحدة يتحملون جميعاً إثمها مهما كان عددهم ولا أبلغ مما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أهل السماء والأرض أشتركوا فى دم مؤمن لكبهم الله عز وجل فى النار» (١).

وهكذا تقدم تلك القصة نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان الصارخ الذى لا

---

(١) الترمذى وقال: حسن غريب.

مبرر له. كما تقدم نموذجاً لطبيعة الخير والسماحة والطيبة والوداعة، وتوقفهما وجهاً لوجه كل منهما يتصرف وفق طبيعته. كما ترسم صورة الجريمة المنكرة التى يرتكبها الشر والعدوان والتى تثير الضمير وتثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل لتكف النموذج الشرير المعتدى عن الاعتداء، وتخوفه وتردعه عن الإقدام على الجريمة فإذا ارتكبها على الرغم من ذلك وجد الجزاء العادل والمكافىء للفعلة المنكرة. كما تصون النموذج الطيب وتحفظ دمه فهو يجب أن يعيش وأن يصان فى ظل شريعة عادلة.

ومن أجل الاعتداء على أرواح المسالمين الوادعين، ومن أجل أن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور فى النفس من أجل ذلك جعل الله تعالى لقتل لنفس بشرية واحدة.. كبيرة.. كبيرة تعدل قتل الناس جميعاً. كما جعل العمل على دفع القتل عنها واستحياء نفس واحدة بإنقاذها من الهلاك عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً، وكتب ذلك على بنى إسرائيل فيما شرعه لهم من الشريعة.

ثم قرن الله تعالى القتل بالفساد فى الأرض وجعل كلاً منهما مبرراً للقتل واستثناء من صيانة حق الحياة، ذلك أن أمن الجماعة المسلمة وصيانة النظام العام الذى تستمتع فى ظله الجماعة بالأمان وتزاول نشاطها الخير فى طمأنينة. ذلك كله ضرورى كأمن الأفراد بل أشد ضرورة لأن أمن الأفراد لا يتحقق إلا به. فضلاً عن صيانة هذا النموذج الفاضل من المجتمعات وإحاطته بكل ضمانات الاستقرار كيما يزاول نشاطه الخير وكيما يزاول الأفراد فيه نشاطهم الصالح لترتقى الحياة البشرية وتثمر وتتفتح فيها براعم الخير والفضيلة والإنتاج والنماء.

والذى يهدد أمنه بعد ذلك هو عنصر خبيث يجب استئصاله ما لم يثب إلى الرشد والصواب ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [المائدة : ٣٣] (١).

---

(١) أنظر: فى ظلال القرآن.

● **مفتاح الشرور وأسباب الإعتداء:**

وتوقفنا هذه القصة مع بداية التاريخ البشرى كذلك على مفتاح الشرور وأسباب الاعتداء بين البشر والتى تكاد تتلخص فى عنصرين هما الشهوة والغضب، فالشهوة مزينة بأنواعها للنفس البشرية. والإنسان نهم بطبعه نحو الاستزادة منها مصداقاً لقول المولى عز وجل: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ [آل عمران: ١٤].

كما تشتمل هذه الشهوات والأهواء على غرائز حب السيطرة والتملك والاستعلاء مما يجعل الإنسان قريباً من الظلم لو لم يلتزم بطريقة العدل والصواب لاسيما وأنه مجبول فى فطرته على الغضب الدافع لأى إيذاء يقترب من حماه والذى قد يستخدمه فى غير موضعه لتحقيق الإشباع لشهواته والإرضاء لغروره، وقد وضح ابن الجوزى هذه الحقيقة بقوله: أعلم أن الآدمى لما خُلق رُكب فيه الهوي والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه ويديم حياته، ووضع فيه الغضب ليدفع عن نفسه ما يؤذيه. ثم أعطاه العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب أى بالإعتدال فى الشهوة والغضب فلا يأخذ ما لا يحق له، ولا يعتدى على أحد.

ثم خُلق الشيطان محرضاً له على الاسراف فى الشهوة والغضب وفى اجتلابه واجتنابه لتمتد يده إلى حقوق غيره بالنهب والاعتداء. ثم يقول ابن الجوزى موضحاً ما يجب على الإنسان فى تلك الحالة: فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذى قد أبان عداوته من زمن آدم عليه السلام وبذل جهده ونفسه فى إفساد أحوال بنى آدم، وقد أمر تعالى بالحذر منه فقال سبحانه: ﴿ **وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾. كما قال جل شأنه: ﴿ **وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن**

يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾. وفى القرآن من ذلك كثير.

فمتى سول للإنسان أمراً أو شهوة فينبغى أن يحذر منه أشد الحذر وليقل له حين يأمر إياه بالسوء: إنما تريد بما تأمر به نصحى ببلوغى شهوتى وكيف يتضح صواب النصح للغير لمن لا ينصح نفسه. ثم كيف أثق بنصيحة عدو. فانصرف فما فىَّ لقولك منفذ.. فلا يبقى إلا أنه يستعين بالنفس لأنه يحس على هواها. فليستحضر العقل إلى بيت الفكر فى عواقب الذنب لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته فيهزم عسكر الهوى والنفس (١).

الإسلام يُهذب الغضب ويأمر بالرفق:

ولهذا فقد عمل الإسلام فى سبيل قضائه على كل ألوان الشرور والاعتداءات فى الكون إلى تهذيب غرائز الإنسان وإلجام شهواته، وهدهذة غضبه وانفعالاته. كما عمل فى نفس الوقت على تأكيد معانى الاحترام والتقدير لكل ما يتعلق بالإنسان من حقوق والتزامات، ولأن الغضب هو أعون صفات الإنسان للشيطان فقد ناله من هذا التهذيب وتلك التربية القسط لأوفى، فنجد الرسول ﷺ دائماً ما ينوه وينبه عن خطره فيقول: «إن إبليس قد يئس أن يعبده المصلون ولكن فى التحريش بينهم» (٢) ويأتى إليه رجل ويقول له: يا رسول الله أوصنى. فيقول له: لا تغضب. فردد مراراً والرسول ﷺ يقول له: لا تغضب» (٣)، وفى رواية «قال رجل يا رسول الله أوصنى قال لا تغضب. قال ففكرت حين قال رسول الله ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله» (٤).

كما يقول الرسول ﷺ منفراً من هذا الخلق اللعين «أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب» كما سأله ابن عمر رضى الله عنهما: ما يباعدنى من غضب

---

(١) ابن الجوزى – تلبيس إبليس. (٢، ٣) البخارى.
(٤) أحمد ورواته محتج بهم فى الصحيح.

الله عز وجل. قال: لا تغضب» [1]، وروى ابن الجوزى أن الشيطان جاء إلى موسى عليه السلام وقال له: يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما، وأنا من خلق الله تعالى أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى إلى ربك ليتوب علىَّ. فدعا موسى ربه فقيل: يا موسى قد قضيت حاجتك. فلقى موسى إبليس فقال له: قد أمرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك.. فاستكبر وغضب وقال: لم أسجد له حياً أأسجد له ميتا. ثم قال: يا موسى إن لك حقاً علىَّ بما شفعت لى عند ربك. فاذكرنى عند ثلاث لا أهلك فيهن: أذكرنى حين تغضب فأنا وحىٌ فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك مجرى الدم، واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حيث يلقى الزحف فأذكره ولده وزوجته وماله حتى يفر، وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها.

كما أجاب من ساله أى أخلاق ابن آدم أعون لك قال: الحدة – وهى ما يعترى الإنسان من الغضب – إن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما تقلب الصبيان الكرة. ولهذا يقول الحق فى كتابه العزيز ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت: ٣٤]. كما أوصى نبيه ﷺ بقوله: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ولهذا نجد أن صحابة رسول الله قد استقاموا على هذا المعنى الأخلاقى الذى أمرهم الله به وعودهم الرسول عليه فيروى أن رجلاً شتم أبا ذر رضى الله عنه فقال له أبو ذر: يا هذا لا تغرق ودع للصلح موضعاً فإنا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه وما ذلك إلا لأن العفو رفعه لأمر صاحبه وقدرة فى إحسان. كما روى أن المسيح عليه السلام مر بقوم فقالوا له شراً فقال لهم خيراً. فقيل له: إنهم يقولون شراً وتقول لهم خيراً؟ فقال: كل منا ينفق من بضاعته» والآثار فى ذلك كثيرة لا تحصى.

---

(١) رواه أحمد.

وحتى إذا كان الغضب فى سبيل الله يجب على المسلم أن يعفو فى كل ما يحتمل العفو وذلك بأمر الله ورسوله. فقد حدث أن قال أبو بكر الصديق لفنحاص وكان من أحبار اليهود: ويحك يافنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله. فقد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع لنا، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الرب (١).

فغضب من ذلك الصديق وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال له: والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبيكم لضربت رأسك يا عدو الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا محمد انظر ما فعل بى صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: وما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله لقد لقد قال قولاً عظيماً. فقد زعم أن الله فقير وهم أغنياء. فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص، وقال ما قلت ذلك. فنزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ثم أنزل الله فى أبى بكر وما ناله من الغضب والحدة فى سبيله. وما يجب عليه فى مثل هذا الموقف ﴿ **وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾

[آل عمران: ١٨٦]

● **تأكيد معانى الرفق والرحمة:**

وفى مقابل نهى الحق تبارك وتعالى عن الغضب والحدة فى غير الحق لأنهما

---

(١) بدر محمود الدمهوجى – بين الصديق والفاروق.

يمثلان رأس كل خطيئة، وسبب كل بلية وعدوان نجده تعالى يؤكد معاني الرفق والرحمة فى الأمر كله فيقول لرسوله ﷺ : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثم يضف أمته بقوله : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩]، وذلك لأن أخوة الإسلام تجمعهم ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠] كما يدعو الرسول ﷺ إلى الرحمة فيقول: « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (١)، كما جعل قسوة القلب دليلاً على الشقاء فقال « لا تُنزع الرحمة إلا من شقى » (٢) كما قال: « من لا يرحم لا يرحم » (٣).

وفى مقابل ذلك جعل الرفق سبباً لحب الله عز وجل فقال: « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » (٤) وفى رواية لمسلم « إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه »، وقد امتدت الرحمة وخيم الرفق فى الإسلام على كل أخلاقيات وسلوكيات المسلمين فلا نجد أمراً من أمورهم أو سلوكاً من سلوكياتهم إلا ونجد هذين الخلقين يزينانه ويجملانه.

مع الخادم:

فمع الرقيق نجد أن رسول الله ﷺ يعلمنا أن نكرمهم ونحسن معاملتهم فيقول « هم إخوانكم وخَوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه »(٥)، ولكن لا يفرض الإسلام على السيد أن يطعم خادمه مما يأكل بل الواجب الكفاية بالمعروف وهو محمول على التفضيل ولهذا نجد

(١، ٢) أبو داود والترمذى وقال: حسن صحيح.
(٣، ٤) الشيخان
(٥) متفق عليه.

عبد الله بن عمر يقول لخادم عنده: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال فانطلق فأعطهم فإن رسول الله ﷺ قال «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته» (١). وهذا ما يتضح من معاملة الرسول الله ﷺ والصحابة والسلف مع الرقيق والخدم.

● **ومع الحيوان:**

كما يعلمنا رسول الله ﷺ الرحمة والرفق بالحيوان وهو الجنس الأدنى من الإنسان، ولا أدل على ذلك من قوله «عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار. لا هى أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض» (٢) كما قال ﷺ «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش. فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج. فإذا كلب يلهث ويأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب. فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله. وإن لنا فى البهائم أجراً؟ قال: فى كل كبد رطبة أجر» (٣)، فالحديث الأول ينهى عن تعذيب خلق الله، والثانى يحث على الرحمة بخلق الله المسخرة للإنسان فما بالنا بالإنسان نفسه الذى كرمه الله وسخر له كل هذا الكون بكل ما يحتويه من نعم وآلاء.

● **وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة:**

ثم يرتقى رسول الله ﷺ بالمشاعر الإيمانية إلى قمة وذؤابة المشاعر الإنسانية فيقول «إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا اقتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» (٤). يا الله. ويا

---

(١) مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه
(٤) رواه الخمسة إلا البخارى

رحمة رسول الله، وآدابه.. وليرح ذبيحته، ومتى؟ وهو مقدم على ذبحها، وليحد شفرته حتى يجهز عليها فى لحظة، ويخلصها من العذاب والآلام التى ستلم بها لحظة الذبح.

إنه مرتقى للمشاعر الإنسانية والإيمانية يبلغ القمة التى ليس وراءها شيء إلا ذلك النور الأعظم الذى ينير الكون كله وينفذ إلى قلوب الكائنات.. إنها الرحمة التى لا تقف عند البشر ولا يحكمها انحياز الإنسان لنفسه، واعتداده بجنسه، وإنما تتعداها إلى المجال الواسع الفسيح الذي يشمل كل الأحياء فى الكون. ثم لا تقف عند هذا المدى وإنما ترتقى دجة أخرى. لأن الرحمة بالأحياء درجة مفهومة.. مفهوم أن تقول لى: لا تقتل هذه الفراشة الطائرة الرشيقة. فإنك لن تستفيد شيئاً من قتلها، وهى فى رشاقتها جمال يحسن أن تُمتع به نفسك وروحك وكذلك الزهور والطيور.. ولكنها درجة وراء هذا المفهوم. درجة أعلى وأشف. أن تقول لى: هذه الذبيحة التى ستذبحها والتى لن تكون حية بعد لحظات.. أحسن ذبحتها، ولا تطل آلامها ولا تمتها موتات.. «وليرح ذبيحته» إنها كلمة تهز الوجدان كلما تمثلها. لأن الحرص على إراحة الذبيحة وهى تذبح، وهى تساق إلى العدم، إلى حيث لا توجد ولا تشعر لا قيمة له فى الظاهر، وفى الباطن كل شيء.

إن الذبيحة ميتة ميتة. أرحتها أم لم ترحها، وهى متألمة متألمة. سواء قطر قلبك رحمة بها أم كنت تذبحها مجرد القلب من المشاعر، وهى لن تلقاك بعد اليوم فتشكو إليك عنفك معها.. إذن فالقيمة العملية للذبيحة لا شيء، ولكن القيمة العملية لك أنت كل شيء.. فهى تثبت لك قلب إنسان، «وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة» والمسلم المخاطب بهذا القول لا يقتل إلا بالحق، ولا شبهة إذن فى أن الشخص الذى يقتله المسلم مستحق للقتل لأنه مرتد أو قاتل أو زان محصن أو مفسد فى الأرض، ولا شبهة فى أن هذا القتل يتم بأمر الله» ومع ذلك فالرسول ﷺ يأمر بإحسان القتل، ونعود إلى قصة الذبيحة فنجدها تنطبق مرة أخرى على القتيل. الذى لن يستفيد شيئاً من أن تحسن قتلته فهو مفارق الدنيا، والألم واقع

به ما له عنه محيص. فما القيمة العملية إذن من إحسان القتل بالنسبة للقتيل؟. لا شيء بطبيعة الحال ولكن القيمة الكبرى – مرة أخرى – هى لك أنت وهى أن يكون لك قلب إنسان. لأنها تثبت لك الرحمة والرفق والإحساس.

والإحسان الذى يعنيه الحديث هو الآداء الحسن والآداء الجميل الذى يستوجب تهذيب الوسائل وتنظيف الآداء (١).

● **حرمة الحقوق البشرية :**

ومع النهى عن الغضب والحدة، والترغيب فى الرحمة والرفق نجد أن الله تعالى يرغب المؤمنين به بالمحافظة الكاملة على حقوق الإنسان مهما قلت أو صغرت وكان الإنسان وحقوقه حرمة وحمى لا يجب المساس بها أو الإقتراب منها، ولا ريب أن فى ذلك سدا لذريعة القتل، ومسالك الشيطان إليه. لأن المحافظة على الحقوق الدقيقة وغير المعتبرة للغير تؤدى بالتالى إلى تعظيم خطر الحقوق والحرمات الأكبر. مما يرتفع بالسلوك البشرى إلى القمة السامقة من العدل والفضيلة، ويؤكد حق كل إنسان فى أن يحيا آمناً مطمئناً على روحه وماله وكل حقوقه قبل المجتمع، ومن ذلك أننا نجد الإسلام يأمر أتباعه بعدم الإعتداء على الغير ولو بالكلمة، ويحرم عليهم ذلك تحريماً قاطعاً. فيقول رسول الله ﷺ « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » (٢).

بل وينفى عن صاحب الاعتداء والفحش صفة الإيمان فيقول « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء » (٣) ويؤكد الحق تبارك وتعالى ذلك المعنى بقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٨]، ويجعل ضبط اللسان عن أعراض الناس وحرماتهم وعن أى نوع من أنواع اللغو. صفة من صفات المؤمنين فيقول: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٣] .

---

(١) أنظر محمد قطب – قبسات من الرسول.
(٢) متفق عليه.
(٣) الترمذى وقال حديث حسن.

كما ينهى الإسلام عن خدش كرامة المسلم وتجاهله فيقول الرسول ﷺ «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه» (١). هذا وينهى الإسلام عن الحسد والتحاسد بين الناس. بل ويجعل الحاسد عدو نعم الله فى الأرض فيقول جل شأنه ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النساء: ٥٤] و يقول الرسول ﷺ موصياً المؤمنين «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» (٢)، وما ذلك إلا لأن الحسد يعمل على انتشار الفرقة، وعموم الضغائن بين الناس مما يؤدى بدوره إلى كثرة الفتن وشيوع الظلم والاعتداء فى المجتمع.

يا حاسداً لى على نعمتى ... أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى حكمه ... لأنك لم ترض بما وهب

فأخزاك الله بأن زادنى ... وسد عليك وجوه الطلب

كما ينهى الإسلام نهياً قاطعاً عن مساس حقوق الناس أو اقتطاعها بغير حق فيقول رسول الله ﷺ «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة. فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: وإن قضيباً من أراك» (٣) ولهذا يذكرهم بقصاص الله يوم القيامة فيقول «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» (٤) وفى حديث جامع يقول الرسول ﷺ «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله. التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام. دمه وماله وعرضه» (٥).

ثم نجد الإسلام فى سبيل محافظته على الحياة البشرية وعدم الاقتراب منها

---

(١) متفق عليه.
(٢) أبو داود
(٣، ٤) رواه مسلم.
(٥) مسلم.

بأى نوع من أنواع الاعتداء أو الإهانة. ينهى عن مجرد الإشارة إلى إنسان بحديدة أو سلاح، وهى درجة رفيعة من الصيانة والتكريم للحياة البشرية فيقول رسول الله ﷺ «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار» (١).

ولا يقف احتياط الإسلام وحذره فى سبيل حماية الحياة البشرية عند هذا الحد بل يرتقى مرتقىً آخر بما رواه جابر رضى الله عنه حين قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُتعاطى السيف مسلولاً» (٢). بل ويحرم الإسلام مجرد إشهار الإنسان لسيفه فى وجه أخيه وإن لم يضرب به وإن الملائكة تلعن من يشير إلى أخيه بحديدة يخيفه بها وإن لم يضربه حتى ولو كان أخاه لأبيه وأمه فيقول «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهى وإن كان أخاه لأبيه وأمه» (٣).

ثم ينهى الإسلام عن حمل السلاح بنية استخدامه والاعتداء به فيقول ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا» (٤).

بل إن الإسلام حفاظاً على الأمن النفسى فى الإنسان يحرم ترويع المسلم وتخويفه وإن لم يحدث إيذاء أو اعتداء فيقول رسول الله ﷺ «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما» (٥) ووصل حرص الإسلام كذلك على الأمن والأمان إلى درجة أن النظرة حين لا يكون فيها أمان يعاقب الله صاحبها عليها. قال رسول الله ﷺ «من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة» (٦)، وكل ذلك حتى يتعود المسلم على المحافظة على حرمات غيره وعدم الاعتداء أو المساس بحقوقهم حتى يكون مستحقاً لكونه مسلماً لأن عدم الاعتداء هو أولى سمات المسلم والمؤمن كما وصفه رسول الله ﷺ فى قوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (٧).

---

(١) متفق عليه.
(٢) الترمذى: وقال حديث حسن
(٣) مسلم.
(٤) البخارى.
(٥) الطبرانى ورواته ثقات.
(٦) الطبرانى.
(٧) متفق عليه.

● **الإسلام وغير المسلمين:**

ولم يقتصر الإسلام فى تحريم البغى والعدوان على أنفس المسلمين فحسب بل دعا كذلك إلى صيانة أنفس غير المسلمين كما دعا إلى العدل معهم والبر بهم فقال تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٧]. كما يقول الرسول الله ﷺ: «من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة» وحكاية عمر ابن الخطاب رضى الله عنه مع ابن عمرو بن العاص الذى اعتدى على المسيحى فى مصر معروفة للجميع لأن الإسلام لا يقر الاعتداء والظلم.

وخلاصة هذه القصة التى توضح معانى العدل الإسلامى مع غير المسلمين: أنه بينما عمر بن الخطاب جالس إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك. فقال عمر: لقد عذت بمجير فما شأنك؟ قال: سابقت على فرس ابناً لعمرو بن العاص والى مصر - فى ذلك العهد - فسبقته فجعل يضربنى بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين. فبلغ ذلك عَمراً - أباه - فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن. فانطلقت منه حين جئتك. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصرى: أقم حتى يجىء فقدم عمر و فشهد الحج. فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو وابنه إلى جانبه قام المصرى فرمى إليه عمر بالدرة وأمره أن يقتد ممن ضربه. فأخذ يضرب ولم ينزع حتى أحب الحاضرون أن ينزع لكثرة ما ضربه وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. فقال يا أمير المؤمنين قد استوفيت وإشتفيت فقال: ضعها على صلعة عمرو. قال: يا أمير المؤمنين قد ضربت الذى ضربنى قال: والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذى تنزع. ثم قال لعمرو: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً[1].

---

(١) أبو بكر الجزائرى - منهاج المسلم.

كما يؤكد الإسلام حق غير المسلمين من المعاهدين فى الأمن والعدل وأخذ حقهم وعدم العدوان على أنفسهم وأموالهم فيقول الرسول ﷺ « آلا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » (١)، وقال عليه السلام « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً »(٢).

كما أكد الإسلام على حقوق غير المسلمين حين يستجيرون بالمسلمين فقال جل شأنه ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** ﴾ [التوبة: ٦]، وهكذا وَسِع الإسلام أهل الكتاب فى كل تعاليمه رحمة بهم وعدلاً معهم، وجعل طعامهم حلالنا وطعامنا حلالهم، وأباح للمسلم أن يتزوج من الكتابية يهودية كانت أو نصرانية مما يقتضى من أتباعه أن يوفوا بذلك العهد متأسين بتاريخ السلف الصالح وحركة التاريخ الإسلامى العام.

● **لن تؤمنوا حتى تحابوا:**

وبعد أن أكد الإسلام على حفظ الحقوق البشرية وصيانة الحرمات أكد على وجوب الحب والألفة والتعاون على البر والتقوى بين معتنقيه وذلك حتى يقيم مجتمعه على أسس راسخة وقواعد رصينة من التعاضد والتكافل تهيئة لمواجهة المصاعب ومجابهة العواصف بخطى ثابتة لا تزعزعها الأنواء ولا تؤثر فيها الكوارث فيقول النبى ﷺ: « والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا.. آلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم.. أفشو السلام بينكم » (٣)، ويأتى إليه رجل ويقول: يا رسول الله أى الإسلام خير؟ فيقول له: تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (٤) وعند دخوله المدينة فى أول عهده بها يقول: يا أيها الناس أفشو السلام وأطعموا الطعام وصِلُوا الأرحام وَصَلُّوا والناس نيام. تدخلوا الجنة بسلام » (٥).

---

(١) أبو داود. (٢) البخارى. (٣) مسلم.
(٤) متفق عليه. (٥) الترمذى وقال: حسن صحيح.

إلى جانب إفشاء السلام وصلة الأرحام يأمر الإسلام كذلك بالتعاون بين المسلمين وبحسن الخلق ويجعل لهذين الخلقين درجة عظيمة عند الله فهما مناط الخيرية وسبب التفاضل بين الناس فى مجتمع الإيمان والإسلام فيقول الرسول ﷺ : « من نَفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » (١)، وأجاب من سأله عن أكثر شيء يدخل الجنة بقوله : « تقوى الله وحسن الخلق » (٢)، وقال أيضاً : « إن أقربكم منى مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون »(٣)، كما أوصى أنس رضى الله عنه بقوله : « يا بنى إن قدرت أن تُصبح وتُمسى ليس فى قلبك غش لأحد فافعل ثم قال له : يا بنى وذلك من سنتى ومَن أحيا سنتى فقد أحبنى ومن أحبنى كان معى فى الجنة » (٤)، وقال فى وصف المؤمن « المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس »(٥).

وهكذا نكون قد وقفنا على أن القتل والاستهانة بحق الحياة البشرية والتعدى عليها بالاهلاك هو أول جريمة حدثت على سطح الأرض منذ وطأت قدما الإنسان الأرض ، وأن الشهوة والغضب كانا الدافعين الحقيقيين وراء تلك الجريمة المنكرة مما جعل الإسلام يضع من الضوابط والتعاليم ما يكفل تهذيب وكفكفة هذين الخلقين حتى يضمن إقامة مجتمع خال من تلك الجرائم الصارخة على الحقوق البشرية .

كما عمل فى نفس الوقت على تأكيد خلقى الرحمة والرفق بالإنسان بلا تفرقة فى ذلك بسبب الجنس أو الوطن، كما حدا بالإنسان نحو المحافظة على أبسط وأدق الحقوق البشرية حتى يوجهه إلى تقدير الحياة البشرية حق قدرها وعدم المساس بحرمتها مهما كانت الدوافع والأسباب .

---

(١) مسلم.
(٢) الترمذى وقال: حسن صحيح غريب.
(٣، ٤) الترذمى وقال: حسن.
(٥) ابن جريج.